حضور رسمي لافت

في وداع الرجل العنيد

إياس محسن حسن ❖

- ١ -

عندما وصل الوفدُ الرسميُّ كان الرذاذُ حوّل التراب وحلاً. السادة الوزراء وممثّلو هيئات الدولة ظلّوا في سيّاراتهم، التي تبعثرتْ على طرف الطريق الترابي الموحل. ولم يكن الموكبُ قد وصل بعد.

حين بدأت كتفاه العريضتان تخرجان من باب السيّارة، تَردَّدَ السادةُ الوزراء الآخرون وأعضاءُ الوفد الرسمي من وزارات الثقافة والإعلام والتربية والزراعة والريّ والكهرباء وغيرها في النزول. ولكنْ لمّا بدا لهم من وراء زجاج نوافذ سيّاراتهم المبتلّ أنّ السيّد الوزير رئيسَ الوفد سينزل حقّاً تحت المطر، فتحوا أبوابَ سيّاراتهم ببطء، كأنما يَأْملون أن يغيّر رأيَه.

«صحّتكم لا تَسْمح، سيّدي.»

يجيب، وهو يَمْسح أنفَه الذي أصبح خمريّاً من كثرةِ ما مَسَحَه منذ الصباح، أنّ الشاعر يستحقّ أن نستقبلَه وقوفًا، حتى حين نكون مزكومين.

يشدّ معطفَه حوله ويسيرُ؛ والوحلُ يتسلّق أطرافَ حذائه. السائق وراءه يُمْسك المظلّةَ فوق رأسه ويمدّ يدَه الأخرى ليرفَع له ياقةَ المعطف. مسؤولُ التلفزيون يَنْظر بنفادِ صبرٍ إلى مصوِّره الذي لم ينتهِ من تحضير الكاميرا. السادة الوزراء يسيرون مبعثرين وراءه نحو الفأس التي تَظْهر صاعدةً هابطةً من الحفرة.

يقف السيّد الوزير على الحافة ناظرًا إلى الأسفل.

«أرجوكم، سيّدي، تراجعوا خطوة، الأرض زلقة،» يقول سعادةُ السفير الذي عاد إلى الوطن خصّيصًا للمشاركة في الوداع.

يَنْظر إليه السيّدُ الوزير وحاجباه مرفوعان. يقول إنّ الرجل الذي يجتمعون هنا من أجله لم يكن يخاف من هذه الحفرة، بل لم تكن حياتُه إلا سخريةً منها وتمسّكًا صادقًا بالحياة؛ فلقد أحبّ الحياةَ بضراوة، دون أن ينسى أنّ الكتابة ليست إلاّ وقفةً كالتي أقفها هنا، على هذه الأرض الزلقة.

السائق يَرْفع له ياقةَ المعطف، بينما هو يعيد إلى جيب معطفه يدَه التي كان رفعها.

المصوِّر ومسؤول التلفزيون يشقّان الحشدَ الرسميَّ نحو السيّد الوزير. أحد الحضور يرجوه أن يُبعدَ قدمَه ولو بضعةَ سنتمترات فقط كي لا تصيبَه الفأسُ. مسؤول التلفزيون يرجوه أن يعيد الجملةَ الأخيرةَ التي قالها، بينما المصوِّرُ يصوِّب العدسةَ إلى أنفه المحمرّ. يبتسم سيادةُ الوزير ويقول إنها كانت مرتجلة. يقول المسؤول إنّ أجمل ما يُمْكن حفظُه من مناسباتٍ كهذه هي اللحظات المرتَجَلَة.

حين يَصْعد الحفّارُ من الثقب الذي أحدثه في الوحل يَنْظر السيّدُ الوزيرُ إلى أسفل. يسأله إنْ كان انتهى. يَنْظر في ساعة يده. الحفّار يقول إنّه انتهى وإنّهم سيذهبون لإحضار ألواح الإسمنت. يبدو على السيّد الوزير القلقُ وعدمُ الراحة. يسأل عن سبب تأخّر موكب الجنازة، ثمّ يمسح أنفَه. يقول له الرجل ذو الرأس الحليق والمعطف الجلدي إنّ المعلومات تفيد بأنّ الموكب سيصل بعد ستّ وعشرين إلى ثمانٍ وعشرين دقيقة. ينادي السيّدُ الوزيرُ أحدَ مستشاريه ويتبادل معه جانبًا جملتيْن سريعتيْن، ثمّ يعود كلاهما إلى طرف الحفرة وينظران داخلها. يقول المستشار إنّ سيادته على حقّ ويَطْلب الحفّارَ فورًا، ليقول له إنّ أبعادَ الحفرة مختلفةٌ عن المتعارَفِ عليه، وإنّها أساسًا غيرُ متناسقة وقبيحة. يقول السيّد الوزير بانزعاج إنّه كان عليهم أن ينظّموا الجنازةَ والدفنَ من أصلهما:

«غير معقول هؤلاء الناس، غير معقول، يموت شاعر كبير ولا يوجد شخص واحد رزين يُشْرف على هذه التفاصيل!»

❖ - كاتب سوري مقيم في ليون منذ عام، وله مجموعتان قصصيتان.

يلتفت السيّد الوزير إلى الحشد الرسمي ويذكّرهم بأنّ الشاعر هَزَمَ الموتَ بصوره المختلفة مرّاتٍ عديدةً في حياته، وأنّه نام معه في سرير واحد طوال سنوات مرضه العضال الذي لم يتمكّن من إسكاتِ قلمه وكسرِ صوته الرافض للخطإ. ويتابع السيّد الوزير بأنّ الشاعر الذي أتعب الموتَ يستحقّ، في آخر رحلته، وداعًا لائقًا.

الحفّار الذي لا يبدو عليه الاقتناع يقول إنّ جميع القبور التي يحفرها هي بهذا العمق وهذا الشكل. يقول أحدُ السادة الوزراء، متقدّمًا من الخَلْف، إنّ جوهر الموضوع هو أنّ هذا القبر ليس كالقبور الأخرى التي تُحفر كلَّ يوم لا على التعيين. يتدخّل أحدُ أقرباء الفقيد الموجودين للإشراف على تجهيز القبر قائلاً، بخفر، إنّ المسألة ربّما تعود إلى اختلافٍ في الطقوس بين الطوائف أو المناطق. يقاطعه السيّدُ الوزيرُ قائلاً إنّ الكلام الطائفي والمناطقي معيب في مناسبةِ وداعِ شخصيّةٍ فذّةٍ قَضَتْ حياتَها تحارب هذه التصنيفاتِ العفنةَ وتناضل من أجل انتماء إنساني يرفض الظلاميّةَ ويسمو على التحزّب والانتماء إلى جماعات ذات مصالح آنية صغيرة. يبتسم السيّد الوزير بحزن ويقول إنّه يَذْكر تمامًا كيف رَفَسَ الشاعرُ الراحلُ إحدى الشخصيّات ذات النفوذ ـ سابقًا ـ حين حاولتْ أن تستميله من جهة الطائفية، بعد أن ضربه بمنفضة السجائر وبَصَقَ في وجهه.

السيّد الوزير يَصْمت، ويَنْظر إلى البعيد.

مسؤول التلفزيون يميل برأسه أمام «المونيتور،» ثم يقول شيئًا للمصوِّر مشيرًا بإصبعه.

يعود الحفّار مع فأسه إلى الثقب ويتابع الدقّ، بينما زميلُه يزيل الوحلَ بالرفش ويلقيه إلى الخارج.

يصلُ أربعةُ رجال يحملون لوحيْن إسمنتيّيْن ثقيليْن يضعانهما قرب الحفرة. يقترب منهما السيّد الوزير وينحني ويحاول رفعَ أحدهما من طرفه. السائق يُقْلت الشمسيّة ويندفع ليساعده مع رجال آخرين ركضوا لمساعدته. يصدّهم السيّدُ الوزيرُ بحركةٍ ناهيةٍ من يده. السائق يَرْفع المظلّةَ من جديد. يعتدل السيّدُ الوزير واقفًا وهو يمسح أصابعَه بمنديله حين رأى أنّ اللوح أثقلُ من أن يتمكّن من تحريكه بيد واحدة.

ينحني السائق ليمسح وحلاً عَلِقَ بطرفِ معطفِ السيّد الوزير من أسفل.

التعب يبدو على السيّد الوزير وهو يَرْفض اقتراحَ أحد الزملاء الوزراء العودةَ إلى سيّارته ريثما يصل موكبُ الفقيد. يتلفّت حوله سائلاً عن الإسمنت. يجيبه صوتُ الحفّار من داخل الثقب بأنّ التراب حين يجفّ فسيُمْسك الألواحَ ويثبّتها، ناهيك عن وزن التراب فوقها. يقول السائقُ للحفّار، بينما يرفع ياقةَ معطف السيّد الوزير من خلف، ألاّ يتحدّث مع السيّد الوزير حين لا يُطلب منه. يَنْهره السيّدُ الوزيرُ قائلاً إنّه لا يحقّ له أن يَمْنع الناسَ من الكلام، خصوصًا في مناسبةِ وداعِ رجلٍ لم يتوانَ مرّةً عن قول «لا» حين كان الآخرون يَخْفضون رؤوسَهم بخنوع. يلتفت إلى الوفد الرسمي وراءه ويذكّرهم بأنّ الفقيد لم يكتسبْ مصداقيّتَه وشهرتَه الواسعة واحترامَ الجميع له إلاّ من مواقفه الواضحة الوفيّة لمبادئه والتي لم تتمكن أقسى الضغوط من تحريكه عنها. يقهقه السيّد الوزير وهو يحني رأسَه ويهزّه بأسف، ثم يذكّر الحشدَ الرسمي الكبير، دون أن يلتفت، بحادثةِ تبوُّلِ الشاعر من شرفة بيته على سيّارة ضابط الأمن ـ سابقًا ـ الذي جاء ليطرح عليه بعضَ الأسئلة بخصوص بيان عنيف كان قد أصدره. ثم التفت السيّد الوزير إلى الحضور الرسمي وأبدى أسفَه لأنّ كثيرين من الرعيل القديم لم يفهموا أنّ أهمَّ ما في هذا الرجل كان اعتراضَه واختلافَ وجهات نظره.

المصوِّر يطلب غاضبًا من مساعده الذي يحمي العدسةَ بمظلّة أن يَرْفعها قليلاً لأنّ طرفها دخل في الكادر وأفْسد اللَّقْطة. السيّد الوزير يأمر بإحضار إسمنت فورًا من أقربِ مؤسسةٍ رسميّةٍ أو قاعدةٍ عسكريّة:

«هذا المكان سيصبح رمزًا، لا يجوز أن يكون مرتَجَلاً على هذه الفوضى. الراحل يستحقّ دفنًا لائقًا.»

السادة الوزراء يقولون للسيّد الوزير إنّه على حقّ. السيّد الوزير يهزّ رأسَه موافقًا.

حين وصلت الجنازة كان أنفُ السيّد الوزير قد بدأ يسيل دون توقّف، وكانت عيناه محمرّتين من البرد. السائق وضع علبةَ المناديل الورقيّة على الأرض، ورفع ياقة معطف السيّد الوزير، ثم عاد والتقطها.

أبلغ السيّدُ الوزيرُ عائلةَ الشاعر الراحل تعازيَه وتعازيَ الدولة كاملةً بجميع إداراتها وعلى أرفع مستوياتها، وشدّ على أيديهم بقوّة. وحين هَمَّ الحضورُ بإنزال نعش الشاعر الراحل من السيّارة وسط بكاء أفراد عائلته، هرع أفرادٌ من الوفد الرسمي يشقّون الطريقَ للسيّد الوزير الذي حَمَلَ النعشَ على كتفه مع الذين حملوه. وضعوا النعشَ على حافّة القبر، بينما كان السيّد الوزير ـ بعد أن تحررتْ يداه ـ يمسح أنفه وعينيه بالمنديل. كان التعب باديًا عليه.

ونظرًا إلى سوء الأحوال الجويّة فقد جرى حفلُ الوداع الرسمي على عجل، واختَصَرَ السادةُ أعضاءُ الوفد كلماتِهم، في حين تعهّد السيّدُ الوزير بأنْ تُنْشر الكلماتُ بنصوصها الكاملة في الصحف الرسميّة على صفحات مخصصة لتأبين الراحل.

بدأ السيّد الوزير الحفلَ المختصَر بالتشديد على أنّ مصاب آل الفقيد يظلّ أقلّ وطأةً من مصاب الوطن:

«لقد فقدتم فردًا من عائلتكم. أما نحن فإننا نودّع أعلى قمم ثقافتنا الوطنيّة، ورجلاً كان طوال سنوات الرمزَ الألمعَ لثقافة التمرّد على الظلام والخطإ.»

وذكّر بأنّ الشاعر الراحل عاش لأجل مبدإه، لا للحصول على المال أو المنصب؛ وأنّ تاريخه في رفض الدعوات والإغراءات، بل حتى التهديدات في الحقب السياسيّة الصعبة التي مرّت بها البلادُ، معروفٌ للجميع. وطَلَبَ السيّد الوزير ألاّ ننسى أبدًا صمودَ الشاعر ونضالَه الطويل الذي تتوّج بانتصاراته الكثيرة على الموت، أقوى الكائنات. وذكّر بأنّ الناس، طوال سنوات، حين كانوا يتوقّعون بأسًى قراءةَ نبإ رحيله في صحف الصباح، كانوا يفاجأون دائمًا بوجود مقالاتٍ جديدة له لا تقلّ قوّةً وصدقًا وحيويّةً عن تلك التي كان ينشرها أيّام شبابه. وختم مؤكّدًا أنّ الراحل أعطى الناس، بذلك، دروسًا عميقةً في الصمود.

وأشار السيّد وزيرُ الكهرباء في كلمته إلى الطاقة الكامنة لدى الراحل، وإلى أنّه كان «المصباحَ» الذي أنار كلَّ بيت.

وأشاد السيّد مندوبُ السيّد وزير الزراعة بجهود الراحل من أجل خلق «تربة» إبداعيّة خصبة في الوطن، وبإسهاماته في تطوير «الحقول» المعرفيّة وفي تحسين «الأنواع» الأدبيّة.

السيّد وزيرُ الريّ نوّه إلى القدرة «التخزينية» الفكريّة المرتفعة لدى الراحل، وإلى «الأقنية» الواسعة التي «ضَخَّ» عبرها فكرَه إلى الشعب.

مندوبُ السيّد وزير التموين والاقتصاد أكّد أنّ الراحل حارب «الغشّ» الفكري، وأنّ «أسهمَه» لم تتوقّف عن الارتفاع لدى «رصيده» الكبير من القرّاء والمحبّين. وذكّرَ بحجم «الإنفاق» الثقافي الذي قدّمه للوطن.

وأكّد السيّد وزيرُ التربية أنّ الراحل الكبير لم يتوانَ عن وضع الخطوط الحمر بوضوح تحت «الأخطاء» لتصحيحها بصدق وأمانة، وأنّه استحقّ ـ بامتياز ـ «شهادةَ» العرفان التي يقدّمها له اليومَ هذا الحضورُ الجليل.

ونوّه الناطقُ باسم وزارة السياحة إلى أنّ الشاعر الراحل تجاوَزَ «حدودَ» الوطن ونجَحَ في اجتذاب الأقلام الأجنبية للكتابة عن تجربته الطويلة. وأكّد أنّ مَنْ لم يَزُرْ «ربوعَه» الشعرية، وأوابدَه الفكريّة الخالدة، لا يستطيع ادّعاءَ الثقافة.

ونظرًا إلى ضيق الوقت، فقد اقتصرَتْ كلمتا وزارتي البيئة والدفاع على التشديد على دور الثقافة كـ «سلاحٍ» بعيدِ المدى، والتذكير بأهميّة الحفاظ على «الينابيع» الثقافيّة النقيّة للوقوف في وجه «التلوّث» الفكري الزاحف إلى الوطن.

عندما فُتح النعشُ، وقبل أن يُنْزلوا الفقيدَ الشاعرَ في مثواه الأخير، طَلَبَ السيّد الوزير أن يودّعه شخصيّاً. كشف الحفّارُ الكفنَ الأبيضَ عن وجهه. التفت السيّد الوزير إلى الحضور، وقال إنّها ساعةُ حزن حقّاً.

كان شالُ السيّد الوزير، في تلك اللحظة وهو يخاطب الحضورَ منحنيًا فوق الراحل، يرفرف جانبًا مع الريح الباردة.

حينْ كان السيّد الوزير يتقبّل التعازي مع ذوي الشاعر الراحل وأصدقائه، كان أعضاءُ الوفد الرسمي يقفون إلى جانبه في صفّ طويل، بقاماتهم المتفاوتة في الطول وأشكالهم الأسطوانيّة داخل المعاطف، يَشْكرون المعزّين على تجشّمهم عناءَ الحضور. كانت قبّعاتُهم النازلةُ على جباههم قد ابتلّت تمامًا. الآلاف التي شاركتْ في وداع الشاعر تَذْهب تباعًا.

كانَ القبر قد غُطّي بتلّةٍ من الورد حين كان السيّد الوزير يلقي عليه نظرةً أخيرةً من عينيه المتعبتين وهو يسير مع ذوي الراحل، كلّ إلى سيّارته. المصوّر فرغ من لفّ أسلاك الكاميرا الكبيرة ووضعها في صندوق السيّارة. السائق أخذ منه معطفَه وأغلق الباب. السيّارات رَسْمَتْ خطوطًا كثيرةً في الوحل وهي تذهب.

- ٢ -

حين دخل السكرتيرُ مكتبَ السيّد الوزير، سأله بتأثّر عن صحّته. شكره السيّد الوزير وأجابه بأنّ زكامه يتحسّن بشكل ملحوظ، ثمّ مدّ يدَه إليه بمظروفٍ مُعَنونٍ بخطّ أنيق، فيه تقريرُ الوفاة الصادرُ عن المستشفى، وهو تقرير يشير إلى تَلَفِ القلب والدماغ والرئتيْن والكبد، والتقريرُ الذي كان فَرَغَ للتوّ من إعداده وأشار فيه إلى أنّ الشاعر دُفن في حفرةٍ عمقُها يزيد عن ثلاثة أمتار وغُطّي بألواح إسمنتيّة ثقيلةٍ سماكتُها خمسةٌ وعشرون سنتيمترًا، أُضيفَ فوقَها الإسمنتُ السريعُ التصلّب بسماكةِ مترٍ ونصف، وأنّه تأكّد ـ بنفسه ـ من أنّ الرجل المدفون هو الشاعر نفسه، وأنّه كان ميّتًا تمامًا. وأشار إلى أنه شارك في إنزاله إلى القبر، ثمّ في إهالة التراب عليه، ووضع أكاليل الورد. أكّد السيّد الوزير في تقريره أنّه لم يسمعْ أيَّ صوت يَصْدر من تحت أكاليل الورد، وأنّه حَرِصَ على عدم مغادرة المكان قبل مرور الزمن اللازم لتصلّب الإسمنت.

ليون (فرنسا)

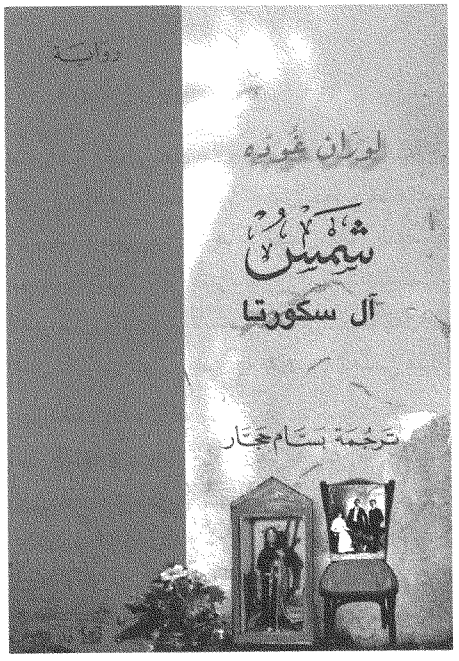

وُلِد آل سكورتا ملطّخين بالعار لأنّ سلالتهم نشأتْ من اغتصاب شَقيٍّ لعانس. في مونتيبوتشيو، بلدتهم الصغيرة في جنوب إيطاليا، يحيون في عُوَزٍ، ولن يموتوا أثرياء. غير أنّهم عاهدوا أنفسهم على توارث القليل الذي مُنّتْ به الحياةُ عليهم، من جيلٍ إلى جيل. لذا كانت ثروتُهم، ما عدا دكّان التبغ المتواضع الذي أنفقوا عليه «نقود نيويورك»، ثروةً لامادّيّة قد تكون تجربة في الحياة، أو ذكرى أو حكمة أو لحظة فرح عابرة. وقد تكون سرًا كالسرّ الذي تبوح به كارميلاّ العجوز لكاهنِ مونتيبوتشيو السابق، خشيةَ أن تفقدَ مَلَكةَ الكلام.